مجلة أبعاد
مجلد 11، العدد 01 (خ)، 2024
ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

وائل حلاق مجادلا عن الاستشراق:
إدواردسعيدكمقدمة لقراءة تاريخ الأنوار الغربي

Wael Hallaq, arguing for Orientalism: Edward Said as an introduction to reading the history of the Western Enlightenment

خلود بن زغبة * khouloudbenzeghba
khouloud.benzeghba@univ-constantine2.dz
فلسفة جامعة عبد الحميد مهري-قسنطينة2– (الجزائر) .مخبر فلسفة العلوم الإنسانية، جامعة عبد الحميد مهري-قسنطينة2

محمد وادفل mohamedouadfeul
mouadfeul@yahoo.fr
فلسفة جامعة عبد الحميد مهري-قسنطينة2– (الجزائر) مخبر فلسفة العلوم الإنسانية، جامعة عبد الحميد مهري-قسنطينة2

****

تاريخ الإرسال: 2022/06/18	تاريخ القبول: 2024/03/17	تاريخ النشر: 2024/08/04

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تقريب النظرة النقدية التي قدمها وائل حلاق لإدوارد سعيد حولعلاقة الاستشراق بالحداثة، للتعرف من جهة على السردية التي يحاول حلاق تأسيسها على أنقاد نظريات سعيد، ومن جهة أخرى على سردية جديدة تعد بتحسين فهم الاستشراق وتطويره، ويجتهد حلاق من منظور متعدد ومتداخل التخصصات في وضع مشكل الاستشراق في نصابه الحقيقي، وإعادة ضبط موقعه الأصلي في المنظومة التي جاء منها بناء على مواقفه المضادة لسعيد، وذلك بإعادة بلورة فكرة الاستشراق لا كمشكل، بل كحل منه وأداة لإصلاح الواقع المتأزم بسبب الحداثة.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق؛ الحداثة؛ الأخلاق؛ النقد؛ الإسلام.

Abstract:

This studyaims to approximate the criticalviewpresented by Wael Hallaq to Edward Said about the relationshipbetweenOrientalism and modernity, to identify on the one hand the narrative that Hallaq istrying to establish on the criticisms of Said'stheories, and on the other hand, a new narrative that promises to improve the understanding

* المؤلف المراسل: khouloud.benzeghba@univ-constantine2.dz

and development of Orientalismonly. From a multidisciplinary and interdisciplinary perspective, Hallaq strives to put the problem of Orientalism in itstrue place, and to reset its original position in the system fromwhichit came, based on his anti-Saeed positions, by re-crystallizing the idea of Orientalism not as a problem, but as a solution and a tool for reforming the crisis-ridden reality of modernity.

Keywords:orientalism; modernity; Moral ; criticism; Islam.

1. مقدمة:

في سنة 1987نشر إدوارد سعيد كتبامن نوع خاص، لأنه لا يواصل سرد حقيقة الشرق كما يقولها الغرب ولا حقيقة الغرب كما يقولها عن نفسه، بل ينهال على القارئ بكم هائل من الأحكام والتصريحات التي تفكر من خلفية رجل شرقي عرف الشرق جيدا وحمل أوزار تاريخه المثل بالخيبات إلى غرب يتحدث عن شرق لا يعرفه.

لقد كان عنوان الكتاب هو الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق" :orientalism western conception of orient"، كتب فيه حقيقة صادمة هي أن تصورات وكتابات الشرق المقدمة في الاستشراق كتخصص أكاديمي ليست علمية، إنها مجرد تمثيلات ثقافية مبنيةعلى خيالات غربية عن الشرق وتمرينات في الفكر السياسي لتأكيد التفوق الغربي، من ذلك الحين تأسست سردية الشرق غير الشرقي، والذي لا يعرف نفسه إلا توهما.

لم يعد نص سيعد هذا درسا عن الاستشراق فحسب، بل أصبح مدخلا للنظريات الثقافية والأدبية وأساس للدراسات الكولونيالية وما بعدها، وبسببه انفتح الباب على مصرعيه للكتابات العربية حول الموضوع، وبشكل باذخ إلى حد الابتدال في السنوات المتأخرة، التي أصبحت فيه الدراسات العربية والأجنبية حوله متكدسة ومتراكمة حد العبثية لا تضيف شيئا في كثير من الأحيان، سوى قراءات عن قراءات سابقة، واضعة بذلك المشتغلين في الإستشراق في ورطة جديدة (ورطة حتمية التجديد والحاجة الملحة إليه)، فأصبح على المشتغل في هذا الحقل اليوم، أن يفكر مرارا وتكرارا قبل أن يبادر بتقديم أي ورقة أو بحث في هذا المجال أو يجازف بالتفكير مجددا بطريقة مغايرة في مسلماته، لكننا ستفاجئ بقامة علمية هامة بحجم المفكر وائل حلاق وهو المنغمس بقوة في مشاكل الحداثة والحفر التاريخي حول فكر الأنوار الغربي، يأخذ خطوة كهذه ويتجه دفعة واحدة نحو الاستشراق بكتاب ضخم يحاجج به ادوارد سعيد نفسه.

مالا يعرفه كثيرون أن مشروع حلاق من البداية كان موجها نحو تقصي حقيقة الاستشراق، فكانت أول ثلاثة كتب لهموضوعة للرد على الاستشراق في علاقته بالتراث الإسلامي من كتابه الفاتح: تاريخ النظرياتالفقهية في الإسلام وكتاب: " نشأة الفقه الإسلامي وتطوره"، و" السلطة المذهبية" .ولم يحد عن غايته الأولى في تصحيح فهم الغرب عن الشرق، فقد آمن حلاق كما فعل سعيد وكل مثقف عربي واع بأن الشرق الذي يحدثنا به الغرب ليس شرقيا إنما هو غربي معكوس، لذا عمل حلاق جاهدا أن يكون مساندا ومراجعا لأستاذه بكل الوسائل النقدية والتحليلية والتفكيكية المتاحة للوصول إلى غايتهما الأولى، كون سعيد نفسه أصبح مرجعا لوحده في هذا المضمار، ورأي حلاق أن أحسن طريقة لذلك هو أن يفرد له كتابا كاملا يجادله ويحاججه بما تجود قريحته من نقد وتحليل، وما كان علينا كقراء إلا أن نتمتع بمحادثات التلميذ واستاذه، فما هو الاستشراق في جدل سعيد وحلاق وكيف يقرأ حلاق سعيدا الأستاذ والمثقف والزميل؟ هل الفهم الذي وصلنا من سعيد عن الاستشراق كاف لنستمر به في نقاشاتنا المقبلة حول أنفسنا ومشاكل العالم الحديث؟ أم أنه آن الأوان لنركن سعيد جانبا وننطلق مجددا للبحث عن حقيقة أخرى جديدة، يمكن أن تسعفنا أكثر في فهم الاستشراق والعالم من حولنا، ما الذي يجعلنا نصدق ونسلم بصحة أفكار سعيد أصلا؟ ألانه فقط عربي يتحدث عن الشرق علينا أن نتمسك به ليمثلنا وينقدنا من تاريخنا غير المرغوب فيه؟.

2. وائل حلاق في مواجهة إدوارد سعيد: أو إعادة تقسيم وبسط نقد الاستشراق:

1.2 استرجاع سعيد أم التصدي لخيانة سعيد:

لا يختلف اثنان حول كون إ.سعيد الباحث والأكاديمي والمثقف الجذري والمفكر الإمبراطوري المتعدد التكوين والهوية، له التأثير الأقوى والأسبق في فهم ميكانيزمات الخطاب ما بعد الحداثي ومشاكل الحداثة والغرب وتأثيرها في الواقع العربي الإسلامي ثم الاستشراق كأهم موضوع في هذه الدراسة، والذي أخذ منعطفاً جديداً ومختلفاً تماما عن ذي قبل منذ ظهور كتابه: الاستشراق.

ولربما من الغرابة أن نجد أن إ. سعيد قد أحدث كل هذا الفرق واعتلى هذه المكانة في الحقول السالفة الذكر في مؤسسة أكاديمية يُفترض أن تكون بيت العدو وملعبه؛ بمنهجه وقواعده، بدراسات يمكن اعتبارها محاكمات معرفية ومنهجية فريدة للأكاديمية الغربية

عموما وللغرب الأورو-أمريكي بالخصوص، هي أقرب إلى تحدي معرفي مؤسس على مواقف نقدية صارمة تعيد تقييم المعرفة الغربية حول الشرق ومدى صحة مصادرها، وكل هذا بأعمال جد محددة مقارنة بضخامة هذا لحقل، هي: جوزيف كونوراد (J. Counorat)ورواية السيرة الذاتية(1966)؛ بدايات القصد والمنهج(1975)، الاستشراق(1978)، مسألة فلسطين(1979)؛ الأدب والمجتمع(1980)، تغطية الإسلام(1981)، العالم النص، الناقد(1983)؛ بعد السماء الأخيرة، حيوات فلسطينية(1986)؛ لوم الضحية(1988)؛ متتالية موسيقية(1991)؛ الثقافة الإمبريالية(1993)؛ سياسة التجريد(1994)؛ تمثيلات المثقف(1994)؛ غزة –أريحا سلام أمريكا(1990)؛ السلام والسخط(1995).

يبدو أن أهمية إدوارد سعيد تمضي إلى أكثر من دراسة الاستشراق، بل إلى تعضيد السياق التأويلي والمعرفي والثقافي لكل ماله علاقة بالغرب، وتشحذ الدراسات حول الاستشراق بمنظور جديد وقراءة ثورية ولغة شديدة أقرب للهجومية والندية، وتعيد معاينة الاستشراق وفهمه فهما عابر للتخصصات والعلوم، والأهم من ذلك جعل الدراسة حول الاستشراق قضية عالمية أو على الأقل موضوعا مفروضا للمساءلة والبحث، متقصدا جعل النص الإدواردي نصا كونيا يخاطب العالم باللغة التي أتفق الحديث بها-الإنجليزية- ويجادله بمنطقه ومنهجه، يقول سعيد:" أنا شرقي يرد كتابه على المستشرقين الذين ازدهروا لفترة طويلة بسبب صمتنا وأكتب لهم من خلال تفكيك بنية مادتهم العلمية من خلال الكشف عن تحيزاتها الماورائي، تاريخي، المؤسسي، الأيديولوجي والمعادي للتجريبية"(سعيد إ.، السلطة والسياسة والثقافة، 2008، صفحة 62).

مع كل ذلك تبقى مواقف واستنتاجات إ.سعيد رهن النقد وتحتاج إلى مزيد من التريث والتدقيق في نظر بعض الطروحات النقدية الأخرى المختلفة، كتلك التي نجدها عند صادق جلال العظم (الاستشراق والاستشراق المعكوس) وهادي العلوي (الاشراق عاريا)، مهدي عامل (هل القلب للشرق والعقل للغرب) واعجاز أحمد (الاستشراق وما بعده-ادوارد سعيد من منظور النقد الماركسي) وبرنارد لويس وغيرهم.

ولكن، على المستوى النظري المعرفي بالذات ظهرت قراءة جديدة ومختلفة تماما عن سابقاتها؛ منذ 2018 مع ظهور كتاب قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثيللبروفيسور وائل حلاق، تتعدى كونها مجرد قراءة نقدية أخرى للنص الإدواردي، أو دراسة احتفاءيه به، ولا حتى دراسة تصنيفية، بل هي استعادة من أجل البسط والتعميق-

أو على الأقل هكذا يحب صاحبها أن يراها-، واستعادة لا تختزل صاحب " الاستشراق" في مجرد مناهض شرس للاستشراق أو متحد شرقي للغرب ومناهجه وابستيمولوجياته، ومشكك في مؤسسات الحقيقة الغربية، وفي الوقت نفسه لا تجعله بطلاً أسطورياً أو أقنوماً مقدساً غير قابل للتجاوز.

لقد برع حلاق في استعادة سعيد وعلى مستوى التصدي لخيانة سعيد، إذا أعددنا سوء قراءة سعيد خيانة، بالمنطق نفسه الذي استعمله سعيد ذاته عند حكمه على مواقف وأعمال فرانز فانون(سعيد ا.، 2004، صفحة 16)، ولا نعتقد بأن هذا الحكم سيكون غريبا أو جديدا، فلطالما ادرك سعيد أنه محل تخوين دائم، يقول:" في عام 1981 صدر "الاستشراق" في ترجمة عربية لافتة ليعزز مقام هذا الكتاب بوصفه إما دفاعا عن الإسلام أو هجوما مقذعا عنيفا ضد الغرب، وكلا الأمرين لا يمت بصلة إلى ماكنت قد انتويتهأصلا من تأليف الكتاب، ومع الزمن اكتسبت كلمة الاستشراق شهرة واسعة باعتبارها لفض تجريح وتشهير، ومن المفارقات اللاذعة أنني أنا شخصيا هوجمت(...) أثناء زيارة قمت بها لفلسطين عام 1996 بتهمة إنني مستشرق، وذهبت أدراج الرياح التحديات المعرفية والمنهجية الأساسية التي جسدها الكتاب"(سعيد إ.، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، 2006، صفحة 09)

الحقيقة أن كل كتابات حلاق منذ بواكيرها لم تخل من إشارات ووقفات وتلميحات هنا وهناك لسعيد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ولابد للمتتبع لهذه الكتابات أن يلاحظ بصورة سافرة أن إشارات و.حلاق أخذت في البروز أكثر ابتداء من كتابه الضخم الشريعة، إلى أن نال سعيد مكانته المتميزة في كتاب قصور الاستشراق الذي يعتبر بصورة أو بأخرى رد على كتاب الاستشراق لسعيد ومواقفه حول الاستشراق والكولونيالية والغرب بصفة عامة.

ضلت الإشارات إلى إ.سعيد لحين كتاب قصور الاستشراق تتراوح بين الإحالات اللطيفة التي تعبر عن الإعجاب والامتنان لمواقف وأفكار المعلم سعيد النيرة وبين ومضات نقدية خفيفة لا يرد لها بال ولا تعدو كونها ملاحظات عابرة أو اختلافات رؤيويه بسيطة، لكننا سرعان ما نفاجئ بحجم الحمولة النقدية التي ينهال بها حلاق على سعيد في كتابه سالف الذكر، مع حفظ الفضل والمكانة لسعيد كمعلم وباحث محنك وملهم، غير أن فهمه لم يكن كافيا لإدراك حقيقة الاستشراق، هذا إن لم يكن مغلوطا- بحسب حلاق دائما-

لأسباب سيتم التفصيل فيها في الفقرات القادمة، وتستدعي بصورة ملحة إلى إعادة تقييم الاستشراق وتأخذه إلى أبعاد أخرى غير تلك اعتدنا على رؤيتها، إضافة إلى تساهله وتغافله في أحيان كثيرة عن بعض الأفكار التي كان بإمكانها ان تحدث طفرة حقيقة في دراساتنا حول الشرق لم تُعْط حقها الكامل، وأخرى لمتكن سوى إشارات عابرة يمكن أن لا تلاحظ أصلا لغير المتخصص، لهذا جاء و.حلاق- كما يزعم- لينقل كتاب ادوارد سعيد إلى بعد آخر ورهان جديد أكثر توسعا وشمولية، ينقل فيه الاشكال الحقيقي للاستشراق من كيف يمكن تفكيك وفهم بنية الخطاب المعرفي الغربي حولنا بوصفه تخيلا واختراعا وتمثيلا أوربيا؟ (سعيد إ.، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، 2006)إلى كيف يمكن تفكيك ومجابهة البنية المعرفية للحداثة التي أنتجت الخطاب الاستشراقي وبقية الخطابات المهيمنة؟

يبدو أن مشكلة حلاق لم تكن محصورة في الإشكالية التي انطلق منها سعيد، أو المنهج الذي اعتمده فقط، بل بجوانب أخرى نفسية كثيرة -سنعمد إلى اظاهر بعضها أثناء التحليل-، وان كان علينا أن نجمل اتهامات حلاق لسعيد في مسألة الاستشراق بشكل موجز، فيمكن أن نختصرها -حسب قراءتنا- في: أولا- أن سعيد بكتابه الاستشراق أسس لسردية كادحة مفتقرة للحس التاريخي وبعيدة عن الفهم المنهجي الذي ينبغي للاستشراق، ثانيا: أن سعيد بالطريقة التي قدم بها الاستشراق كخطاب أيديولوجي مستقل، يكون بذلك قد ساهم في تشويش معنى الاستشراق النوعي وموقعه العضوي في الثقافة الغربية، وبالتالي تضييع المصدر الحقيقي للمشكلة، ثالثا: أن سعيد لم يكن مثقفا محايدا كما يزعم،بالرغم مما يبدو عليه من التزام صارم للقضية وموضوعية كبيرة، إلا أنه ظل وفيا للغرب، مصبوغا بلون المثقف المنتمي ولو بطريقة غير مباشرة أو مقصودة، فقد كان سعيد "نموذجا لمفكر ليبرالي لم يستطع رؤية العالم بمعزل عن قيم الليبرالية مهما بلغت درجة نقده لهذه القيم من ثقابة ذهن"(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 124)، رابعا: جل افتراضات سعيد التأسيسية لم تكن كافية لنقد الاستشراق، وليس لها أهمية أو فائدة تذكر في إعادة ضوع الاستشراق(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 351)، ولا تعد بأي إمكانية أو حل جديد لتجاوز مشكلاته.

2.2. الاستشراق نطاقه الزمني والمعنوي:

نحن نربو بأعيننا هنا إلى تتبع الاستشراق لا من مساره التاريخي والأكاديمي ولا اشتقاقاته اللغوية وجدالات حقيقته وأهدافه، بل نحفر بما نملك ونستطيع في موقف باحث بعينه، هو إدوارد سعيد بأدوات وأفكار وائل حلاق. لقد ركز حلاق على نقطة واحدة حاسمة وجعلها أساسا ثابتا في دراسته حول إدوارد سعيد، وهي تعميق وبسط نقد الاستشراق من أجل إثبات أن الاستشراق ليس هو بيت الداء الحقيقي، ولا يمكن أن يولد نوع من المعرفة كتلك التي ينتجها الاستشراق دون أن يستنبت في بيئة تسمح بخلقه شيء ما ذو بنية أعمق وأكثر تجذرا، بل وأكثر سلطة وتحكما، هذا الشيء لا يكمن إلا أن يكون الحداثة والمشروع التنويري باعتباره المنظومة الأكثر جبروتا وفتكا، التي عرفتها أوروبا والعالم الحديث، ومن أجل تعميق نقد إ.سعيد كان عليه أن يعيد تفكيك وفهم مصطلح الاستشراق نفسه، لاعتقاده الجازم بأن هذه هي النقطة التي سببت الكثير من سوء الفهم والانحيازيات والانحراف عن الأسئلة الجوهرية حول الاستشراق لذا سعيد وغيره من الباحثين في هذا المجال . لهذا كرس حلاق مساحة لابأس بها من بحثة للاشتغال على هذه المسألة.

رأى حلاق أن الطريقة التي أطر بها سعيد الاستشراق هي مكمن معظم المشاكل مع الاستشراق، فقد اعتقد سعيد أن الاستشراق" ظاهرة معممة وعابرة للتاريخ"(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 45) تطلق جزافا على أي فكرة أو شخص كتب عن موضوع إسلامي أو آسيوي أو إفريقي، وأنه ليس هناك ما هو أسهل من العثور على مستشرق في كل مكان وزمان عبر التاريخ الإنساني، من اليونان القديمة مرورا بالعلماء اللاتينيين في القرن الثالث عشر، إلى أحفادهم في القرون المتأخرة مثل جون جرونابوم وبرنارد لويس، وهي قراءة ليست دقيقة في رأييه، ولا يمكن اعتماد التعميم في هذه الحالة حتى على الثقافات التي يعتبرها سعيد عنصرية -الثقافات العليا للعصور القديمة- لسبب وجيه أيضا؛ وهو أنه لم يكن هناك اقتران بين المعرفة والسلطة مثلما تفعل الثقافات الحديثة اليوم(وائل، وائل حلاق وقصور الاستشراق، صفحة 5).

لهذا، لم يكن التعميم عند سعيد مشكلا استقرائيا أو تحليليا وحسب في نظر حلاق؛ بل كان مشكلا ابستمولوجيا وقيميا في المرتبة الأولى، أنتج صورة غير متسقة، بل ومختلة عن الاستشراق؛ صورة اتهامية هجومية لكل من يكتب عن الشرق بصرف النظر عن

إيجابية أو سلبية الكتابة نفسها، لا يفهم من هذه الصورة سوى أن سعيد نفسه واقع تحت تأثير الغرب الذي ينافح ضده، فردة الفعل الهجومية والتفكير التحرزي من الغرب يؤكد على معيارية سعيد، واعتراضه على الاختلاف بين الشرق والغرب، ورفضه لدونية الشرق وعلو الغرب راجع إلى اعتباره أن الغرب مقياسا، ولا يمكن لأحد أن ينكر قوة حضور القيم العلمانية والديموقراطية والثقافة الغربية في تفكير سعيد، فنموذجية الغرب وإدانة الاستشراق في الوقت نفسه على تناقض الموقف باعتبار الاستشراق منتج من منتجات الحداثة والغرب؛ يوضح مدى محدودية رؤية سعيد وقصور نظره عن رؤية مصادر الاختلاف والتقارب.

إن الايمان بوجود تلازم بين الاستشراق والحداثة انطلاقا من بنية الهيمنة المتخفية التي يحملها الاثنين، يجعلنا نرى بوضوح أن الاستشراق هو جزء صغير من المنظومة الحداثية وواحدة من تداعياتها، شأنها شأن الكولونيالية والإبادة والإمبريالية وغيرها، وبما أنها جزء من السلسلة التي تكون بنية الحداثة، فلن يكون الاستشراق وحده حامل لشيفرات هذا النموذج، بل ستكون مبثوثة في كل ماله علاقة بها من أكثر الأشياء عمومية وشيوعا كطرق العيش والتفكير إلى أكثر الأشياء ضبطا وخصوصية، يقول:" أنا أرى أن الهندسة والاقتصاد وكليات الأعمال(البزنس) والصحافة وكليات القانون والتيار السائد في الفلسفة والعلوم والطب، هذا كله وأكثر قد بنى معرفيا بالأسلوب نفسه بين كل تخصص وآخر هو مادته الجوهرية. وعليه، فإن الاستشراق أجلى مجال يدرس فيه الآخر، فهو بذلك يفوق الأنثروبولوجيا، إذ تتجلى في العنصرية والاستغلال والسيطرة والهيمنة والتسيد"(وائل، وائل حلاق وقصور الاستشراق، صفحة 6).

يظن حلاق أنه لم يكن في وسع الاستشراق أو غيره أن يكون بهذا التأثير والتوسع لو لم يكن" نسقاً حداثياً من القوة"(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 39). ومن أجل ذلك كان لابد من إعادة تسكين الاستشراق في سياقه المعرفي والجغرافي الاشمل وبنية الفكر وشروطه التاريخية التي فشل سعيد في إدراكها، إذ تقوم سردية سعيد على مبدأ القدامة التاريخية للاستشراق التي يختلط عليه فيها الفرق بين بداية قصة الاستشراق وبين وجوده الرسمي والتي لا تقل عن ألف وخمسمئة عام بين الاثنين، ثم لن يجد سعيد حرجا في الاعتقاد بوجود مستشرقين معاصرين وآخرين نهضويين وغيرهم من الأقدمين؛ يونان ولاتينيين، دون أن يبن أدنى فرق بينهم ولا عن

حقيقة شخصياتهم ونواياهم والاختلافات المنهجية والآليات الخطابية التي استعملت عند كل جماعة، سوى أن جميع هؤلاء اتفقوا على الإساءة للشرق وتزييف صورته، مع العلم أن المعيار الوحيد الذي يجعل شخصا ما مستشرقا هو انتماءه الجغرافي للغرب، ما ينتج عنه؛ اسقاط بعض أهم الأسماء في عالم الاستشراق غينون "Guinon " الذي على الأغلب لم يكن سعيد يعلم عنه شيئا (وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، الصفحات 65-66)، والغريب أن سعيد سوف ينجرف وراء بعض الأحكام التحيزية التي ستجعل من كل من تحدث عن الشرق مستشرقا وكل أوربي عنصري وامبريالي ومرتكز حول إثنيته الخاصة(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 66)

أما وقد جعل هوية المستشرق سمة فارقة وجعل الاستشراق مبحث قيمي يجب التمييز فيه بحكم تقديري لا يعرف معياره على وجه الدقة بين المستشرق الصالح، إلا لأنه ملمع لصورة الشرق، والمستشرق الخبيث لمجرد تزييفه لها، وما ينتج عن نصوصهم من بصمة محددة وهوية واضحة، مع أن هذا يتناقض تناقضا صريحا مع التيار الذي ينتمي اليه سعيد -نظرية الخطاب الفوكوي-، وبالتحديد دور المؤلف والبراديغم (النموذج) المسيطر التي تعد أساس فهم هذه المسألة.

قدَّر سعيد أن الاستشراق مضمون معرفي متوقف على مظهره الخطابي بناء على مواقفه الإيجابية أو السلبية عن الشرق، دون أن يولي أهمية لبنية الخطاب نفسه ومصدر انبثاقه، فمن غير المعقول حسب و.حلاق أن نأخذه كمجرد صلد فقط، بل الأجدى أن نقرأه كبناء " نسقي مركب في هيكل أكبر يحدد له طبيعته وهدفة وتمتد رأسيا وأفقيا عبر المشروع الحداثي وفلسفة التنوير"(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 38).

ولا يمكن الوصول إلى هذه الرؤية الكاملة للاستشراق كنسق إلا إذا استوعبنا جيدا ما قدمه جون اوستن في نظريته الأذاتيةperyormaltiyالتي يمكن أن تكون أداة فعالة تحررنا من قراءة الاستشراق كقضية حاملة لفكر مكذوب حول الشرق، وتضعنا على خط الفهم الصحيح معياره السياقات والظروف التي تكون بنيتها أي تحقيق شروط الملاءمة؛ وبالتحديد الملاءمة اللغوية التي يمكنها إعادة وصل الخطاب الاستشراقي ببنية الحداثة الأوسع التي قفز عليها سعيد ببساطة(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 42)، والأهم من ذلك أنها تخلصنا من الفكرة التي كرسها سعيد

طوال هذه السنوات، وهي فكرة البصمة الخاصة، فالنص في المنظور السعيدي هو بناء مغلق على ذاته موجه بفكر المستشرق الحامل لبصمة خاصة والتي تخلق بالضرورة صورة شخصية مزيفة عن الشرق، والنظر من جديد للاستشراق جزء من واقع حداثي محكوم سيادة معرفية وهندسية ثقافية وكولونيالية وبنى فكرية، وأشكال إبادة مختلفة، وسيأتي ذلك بسهولة إلى التخلص من الخلط بين علاقات القوة وعلاقات التواصل في الاستشراق، أي الانتقال من الاعتماد على المنظومة اللغوية في فهم علاقة الشرق بالغرب إلى فهم بنى السلطة والقوى التي تحكم هذه العلاقة(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 43).

إذا كان بإمكاننا أن نوجز تعريفا وضحا للاستشراق كما يراه حلاق، فما عليا سوى قلب الصورة التي وصلتنا من سعيد، بدأ من تميز الاستشراق واختلافه إلى علاقته بالكولونيالية والسلطة، إذ يرى حلاق بأن الاستشراق بطبيعته هو مجرد أداة مسخرة منبثقة من نظام أشمل وهو بنية الفكر الغربي، إنه مجرد لاحقة وصورة أخرى من صور المعرفة الموضوعة قصدا لخدمة هذه البنية ولا يمكن تقبل صورة عكسية له بأي حال من الأحوال، وسيكون من الغريب جدا بالنسبة له التفكير في الاستشراق على أنه سبب أو على الأقل مدخل للاستعمار، للسبب نفسه الذي يجعل من الغريب اختراع الآليات الحربية والخطط الاستعمارية والإدارة البيروقراطية قبل ظهور فكرة الغزو والاستعمار أصلا، لأن لا أحد سيتقبل فكرة وجود وسيلة قبل ظهور سبب استعمالها من الأساس، والاستشراق خاضع لنفس المعادلة، فالتفكير في أن النصوص الاستشراقية بأنها تنزع إلى تزييف صور الشرق، دون إرجاع ذلك للسبب الأصلي، سيبقى تفكيرا هشا، فالمهم هو السبب الذي اخترع من أجله الاستشراق والمنظومة الفكرية التي شكلت عقول المستشرقين والعلاقة بين هذه المنظومة وطريقة تفكير المستشرقين، ومن ثم علاقة ما ينتجه الاستشراق بالقوة السياسية والاقتصادية المسيطرة.

من السذاجة بمكان في رأي حلاق أن يتم التفضيل أو الترجيح بين علم وآخر أو تخصص أكاديمي وآخر في الحداثة، فليس هناك أي اختلاف بينها، مادامت كلها تقع في نطاق مركزي واحد، يعتمد منظومة خطابية موحدة تقوم على إقصاء كل الرؤى المنافسة للنطاق المركزي، انطلاقا من توطيد الروابط البنيوية المباشرة بين التخصصات الاكاديمية وبين الاستشراق نفسه على جميع الأصعدة وأهمها الاقتصادي بالطبع، وإذا كانت فكرة

تميز الاستشراق التي بررها سعيد لا تزال فكرة براقة ومنطقية إلى حد ما، فذلك راجع – والكلام لحلاق- بالأساس إلى الطريقة التي يحقق بها أهدافه، فلا اختلاف حول أن الاستشراق هو أقصر الطرق وأسهلها لتحقيق المراد، وربما هو أكثر التخصصات قدرة على خلق الهالة، لكنه في الحقيقة تبقى تأثيراته ضئيلة مقارنة بالأثر الذي تحدثه بقية التخصصات، وهذا لا ينفي أهميته، لكن ما يجب أن يوضع نصب الأعين هو أنها ليست مجرد علوم خالصة أو مستقلة بل هي أساس البنية الفكرية الاستعمارية؛ لا بل البنية الكامنة وراء اللاشعور الجمعي، فهي تتجذر في بيئة أوسع من العلل الاجتماعية العامة(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 112)، وبما أنها تخصصات النطاق المركزي كما سبق الشرح فهي مرتبطة أساسا بمشروع الحداثة وبالتالي الكولونيالية والإبادة الجماعية .

3. إعادة صوغ الاستشراق:

1.3 من الخوف من الاستشراق إلى الخوف من الحداثة:

لاشك ان محاولات حلاق لتصويب فهمنا حول الاستشراق لم تكن تصبوا إلى تصحيح مفهومية الاستشراق أو محاولة فهمه بطريقة جديدة موضوعية وأكثر دقيقة فحسب؛ بل يمكن ان نقرأها بأنها تصريح إيتيقي محض أو لنقل أنهاتبرئة ذمة أخلاقية من نوع ما، في مقابل حملة الإدانة المطلقة للاستشراق والمستشرقين التي شنها سعيد ومن بعده، والتي يراها حلاق بأنها تتسبب في صعوبات نظرية كبرى، وتقود لنتائج معاكسة لتصوراتنا للقوة وفهمنا للحداثة وسبل التحرر منها، تأتي هذه المحاولة لتعيد توجيه الفكر العالمي إلى أخذ الاستشراق بجرأة غير مسبوقة، هي جرأة التفهم والمواجهة والإدانة الصحيحة للمسؤول الحقيقي الذي هو الحداثة، لكن كيف يمكن تفهم الاستشراق والتحفظ عليه في الوقت الذي نحن مطالبون فيه برفض الحداثة وكل لواحقها؟

ان الاستشراق (أي كانت القراءة التي وردت فيها) هي حسب حلاق لا يمكن أن تكون إلا لبنة، أي قطعة من قطع أحجية الحداثة التي تختلف عن الأحجية الإسلامية الحقيقية في كثير من الجوانب، اذ ان الاستشراق " بحكم تعريفه غير أوربي مع أن القائمين عليه كانوا أوربيين وقصدوا به مخاطبة غير الأوربيين(...) كان قد أعاد تشكيل قيم الأوربيين أنفسهم ونظرتهم الكونية"، وإذا كنتقد فهمت حلاق جيدا فأظنه يعني بذلك أن كل من المشروع الإسلامي والمشروع الاستشراقيينطلقان في مسارين مختلفين تماما عن بعضهما، يأخذ فيه

الأول مسارا وجوديا، بينما يأخذ الآخر مسارا تأويليا ما يجعل الأول واقعيا والآخر تصويريا، ولا أعلم على وجه الدقة ما يقصده بالمشروع الإسلامي حقيقة، لأنه لا يوجد اتفاق على صورة موحدة للإسلام وتاريخه بصورة واضحة خارج المنظومة الاستشراقية إلا في عقل حلاق نفسه، وهو لا يصرح هنا عن تفاصيل المشروع الإسلامي ولا حتى في أي مرجعية نجده، لكنه ينتقل للحكم بأن الاختلاف بين المشروعين لا يتعلق بعمليات بناء الذات والثقافة النفسية، وانما يتعلق بالغاية الإنسانية والفرد وموقعهما من العالم في كلا المشروعين(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 347)، وهو ما نراهمنطقيا جدا، لكن ما هي غاية الإنسانية الحديثة التي تجعلها مدمرة ومفسدة ؟

يفهم حلاق الحداثة في علاقتها المباشرة بالعقلانية ما يجعلها مأزومة بهذه الغاية ومُدانة بها، فالتكوين الحديث للقيم الأخلاقية مؤسس بالدرجة الأولى على ميتافيزيقا من الحرية والعقلانية والفردية التي تقوم بتشكيل الفرد والثقافة، وكل ما ينتج عن هذا التشكيل نظامي ومخطط له، لاعرضي أو عشوائي، فهي وراء الأزمة البيئية التي تستوطن النظام الحديث الذي يوظف بدوره الرأسمالية والكولونيالية والصناعة والقانون وكل شيء تقريبا، بل أن العقلانية في أشكالها العملية هي منظومة معرفية وطريقة واعية وقصدية متناسقة في النظر إلى العالم وتفسيره، والتي تورث في النهاية منظومة مفتقدة للقيود الأخلاقية اللازمة بعيدا عن النزعة العقلانية التدميرية .

لم تنتج لنا هذه العقلانية سوى مشكلات وقضايا تتناسل من بعضها إلى نهاية مأساوية لا تبدو بعيدة، فقضية بقاء الجنس البشري وأشكال الحياة الأخرى، وأشكال العنف السياسي والاجتماعي التي لم نر لها مثيلا من قبل: الفظائع الكولونيالية والكيانات السياسية القاتلة؛ تدمير البيئة ومصادر الماء وتسميم الغذاء والقضاء على التنوع الحيوي؛ وتفاقم الأخطار الصحية والأمراض النفسية والتفكك الاجتماعي والأسري وغيرها من نواتج القيم الحداثية والرأسمالية اللبرالية التي تؤثر على الفرد والقرية العالمية، تفيد بوجود تلازم ترابطي وزمني بين منطق عصر التنوير وحداثته وبين التدمير الممنهج للنظم البيئية والاجتماعية، التلازم الذي يجعل من المنطقي الاستنتاج بأن عالم الحداثة لا يقدم التزامات أخلاقية لحماية الانسان والبيئة.

وعلى الرغم مما نشهده اليوم من إدراك متنامٍ وسريع بعدم استدامة هذا المشروع ونظامه المعرفي من قبل جماعات ومفكرين ومثقفين مرموقين من مختلف أنحاء العالم،

والحاجة إلى إعادة النظر والتأسيس لهذه المنظومة، الا أن هذا غير كاف البتة، لأن الأمر أصبح يستدعي تدخل طارئ ومستعجل لا كمشاورات ونقاشات عابرة، بل الأمر يستدعي تحركات فعلية ونقد أعمق للحداثة، بدأ من المشروع الاستشراقي وانتهاءبجميع العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، الصفحات 348-350)

كيف يمكن للاستشراق أن يكون مدخلا لنقد الحداثة وإصلاحها إذا كان الاستشراق نفسه قاصرا ومأزوم بأزمات الحداثة التي ينتمي إليها؟

بما أن الاستشراق تأسس وتطور كجزء من مشروع كلي للقوة والثقافة المشدود بقوة إلى بنية الفكر السيادي، فهو نطاق يمكن تعميمه، وما يجعله خيارا جيدا لتمثيل النطاقات الأخرى هو اهتمامه الصريح بالآخر، فالاستشراق "ومن خلال قبول تحدي إعادة تشكيل الذات بصورة عميقة وهادفة، يمكن أن تتحول بنى فكره الداخلية ليساهم ولو بصورة متواضعة في فتح طريق مستقبلي للبشرية كلها، بدءابأخذ فكرة الآخر بدرجة مناسبة من الاعتبار(...) فلا مبرر للاعتقاد بعدم وجود ما يمكن للاستشراق أن يقدمه، إلا أنه يجدر بنا أن نضع أمرين في الاعتبار(...)أولهما أن الاستشراق شارك في نفي الإنسانية ونزعها عن الآخر، وثانيهما هو أن الأزمة من نتاج الثقافة التي بدأت في أوربا الغربية والتي تهيمن على العالم الآن"(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 360).

تتبين رشاقة طرح حلاق هنا في براعة الانتقال بالاستشراق إلى مستوى مجاوز استنادا إلى العلة السابقة، فالاستشراق بشموله لمنطق النموذج الحداثي وامتلاكه لسمات هذا النموذج كالتصور الخطي للتاريخ، وثيولوجية التقدم والتصور لليبرالي للواقع والاتساق الداخلي المنهجي، وبوصفه تراثا من البحث العقلاني المحدد الموجه نحو منظمات تراثية أخرى أعيد صياغتها لتصبح هذه الصياغة العقلانية حولها جزء من آلية القوة التي تتمتع بها، أي أنها تصبح عنصرا تكتيكيا في مجال علاقات القوة، ومصدر أول لإنتاج خطابية هدامة حول الآخر(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، الصفحات 361-363).

إذا استطعنا أن نستغل موقع الاستشراق المعرفي في صالحنالتقديم خطاب مضادا بواسطة استشراق معدل، فسنتمكن من تسهيل التعامل مع الأزمات التي تنتجها الحداثة،

وذلكلاعتباراتعدة منها: أن الاستشراق هو أكثر مجال أكاديمي اهتماما بالآخر وبالتحديد الآخر الشرقي الذي يمكنه إثراء النقاشات حول الحداثة وتشكيل الذات الجديدة، إضافة إلى أنه يملك أدوات فيلولوجية دقيقة وقدرة على التعامل مع نصوص الآخر، وهو هنا يتفوق حتى على الانثروبولوجيا، ناهيك عن أن الاستشراق هو الحقل الاكاديمي الوحيد في الغرب القادر على التعامل مع تراث الشرق الفلسفي والأخلاقي والقانوني، كل هذه الميزات تحمل الاستشراق مسؤولية كبرى في إعادة النظر في الحداثة وأزماتها(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 363).

إذن كيف يمكن استغلال الاستشراق والاستفادة من منظومته العقلانية لصالحنا؟

2.3 النقد الخلاق والهم الأخلاقي:

لكي يتمكن الاستشراق من إعطاء الحد الأقصى من النفع والحفاظ على نفسه كمنظومة بحث عقلانية محايدة ومثمرة عليه أن يأخذ بجدية حاجتنا الماسة لما يسميه حلاق " النقد الخارجي" الذي تطلبه العقلانية نفسها(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 364)، ولا جدوى من محاولة التخلص من الحداثة أو تمديد آمال نهايتها بدعوى أنها نهاية التاريخ، لأن ذلك لا يعد سوى حماقة؛ وفكرة غير مرضية لا عقليا ولا تاريخيا.كما أن الزعم بإمكانية نقد الحداثة من موقعنا داخلها باعتباره المكان الوحيد الذي نجد أنفسنا فيه، هو أيضا رأي عدمي وغير مرضي لنفس الأسباب، لأن كل الأنظمة والثقافات والحضارات تسيربنفس القانون، مهما كانت منفردة معرفيا أو ثقافيا أو رؤيويا، أي أنها تدول فتعلو وتسقط (وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 8)ثم تخلفها غيرها وهكذا دواليك، فلن تكون الحداثة آخر نظام نراه وليس علينا انتظار اختفاءها لنقوم بالخطوة الموالية، إذن يبقى الأمل الوحيد للتحدث من موقع خارج الحداثة هو تطوير آليات النقد الخارجي، لأنه لا مفر من موقعنا داخل اسوارها.

ربما علينا أن نشير إلى أن حلاق لم يشرح بصورة واضحة- على ما نعلم- المعنى الدقيق لما يعنيه بالنقد، وهذه مشكلة حقيقية تشوب طرحه، فلاشك أن مفكراً كبيراً مثل حلاق مطلعٌ بما يكفي على الجدل المحتدم حول ما يعينه النقد لليوم، والاختلافات الواسعة بين ما يمارس تحت شعار النقد الأيديولوجي، والنقد الثقافي، والنقد الهوياتي وغيره، مع ذلك يتجاوز المسألة بسرعة غير مبررة متجاهلا أهميتها؛ ليس واضحا ما إذا كان حلاق يريدنا أن

نفهم النقد الذي يقصده كقطيعة أم تحسين **التنسيق** مستمر، هل يستدعي حلاق النقد للتعبير عن الرفض الجدلي أم للتعبير عن الممارسة التحليلية والتفكيكية الجوهرية، أم للبحث عن الحقيقة الكامنة داخل أنسجة نظام ما؟ أو ربما مجرد التفكير لذاته؟ أم كل هذا مع بعضه دفعة واحدة؟(طلال، جوديث، صبا، ووينديي، 2017، صفحة 16) إذا اعتبرنا أن هذه بالفعل فقط هي المعاني المستعملة للنقد حاليا.

بناء على الاستعمالات المتعددة التي جاءت في كتبه المتأخرة لمصطلح critiqueسنفترض أن المعنى الأخير هو المقصود، لكن بأي معنى يكون هذا التفكير والبحث خارجيا ومن داخل الحداثة في الآن ذاته؟ يقول بأن حلا أزمات الحداثة لا يمكن أن يكون حداثيا، قاصدا بذلك أن تطبيق الحلول النموذجية على مشكلات التي تتسبب فيها النطاقات المركزية نفسها هو بالتأكيد حل غير مجدي، فمن منطقي والواقعي أن الممرض لا يمكن أن يكون دواء لنفس المرض وحكمة بالتي هي الداء هنا ليست حكمة عملية على الإطلاق، إضافة إلى أن الحل لا يمكن أن يقتصر على تشخيص جزئي محدد، بل يجب أن يكون تشخيصا مراعيا لواقع الحداثة في ادق واعمق تفاصيلها وفي علاقة هذه التفاصيل ببعضها كبنية علائقية متكاملة، فالمشكلة الاقتصادية-والكلام لحلاق –ليست فقط اقتصاد أو فيه، وكذا مشاكل السياسة لا تقتصر على السياسة أو فيها، بل الكل مربوط ومتضمن في الكل، إذن النظام الحداثي يجب أن يبحث فيه بوصفه واحدة مجموعة من المشكلات المترابطة التي تكون مشكلة واحدة كلية(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 366).

هذه النظرة الموحدة للعالم ومشكلاته والحداثة ومآزقها، لا يمكن الوصول إليها إلا بقلب بنى هذه الحداثة القيمية بكاملها، بما في ذلك من منطلقات فكرية وأخلاقية وحتى الهوية البشرية الحداثية -القائمة على المركزية والسيادة على الطبيعة-، ما يعني أننا نحتاج إلى ثورة تعيد برمجتنا على النظر للعالم بوصفه وحدة واحدة؛ برمجة تأصل فينا كطبيعة ثانية، ولا يمكن لهذا المسعى أن يتحقق الا إذا أدركنا امكانياتنا وفعّلنا قدراتنا على التعاطف والتضامن والمحبة كأساس للتناغم مع العالم، وإعادة هيكلة النفس وتشكيلها بتقنيات معينة، وإعادة ترتيب علاقات البشر ببعضهم وبالعالم.(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 387).

ما الدور الذي يمكن للاستشراق أن يلعبه في مسألة النقد هذه؟ أو كيف يمكن للاستسراق أن يقدم إمكانات نقدية محترمة للحداثة؟

يمكن للاستشراق كما لكل الدراسات سواء أكانت مرتبطة بالإسلام أم بغيره؛ أن تكون مرشدا وناقدا للحداثة شريطة أن تمارس النقد الذاتي على نفسها أولا، لذلك يشدد حلاق على ضرورة إعادة النظر في اهتمامات الاستشراق من داخل الاستشراق نفسه، وعليه أن يضع المفعول مكان الفاعل أو ما يطلق عليه التاريخية التوجيهية، فإن أعاد الاستشراق النظر في اهتماماته ونقد مناهجه ومنطلقاته، سنتمكن من التعامل مع المنظومات التراثية على أنها مستودعات للفكر وموجهات ترشدنا إلى تصميم ذات استشراقيه جديدة؛ بدلا من التعامل معها كموضوعات للتقييم وإعادة والتشكيل، فالاستشراق ومن خلال الأدوات الفيلولوجية التي يملكها سيمكن الإنسان الحديث من الحفاظ على الروح أثناء تأسيسه لتقنيات جيدة للنفس توفر نموذج يمكن الاحتذاء به، والذي سينتج عنه تحقيق نتائج مرضية بصورة تلقائية لباقي المنظومة(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 382)، فسواء تمكنا للوصول إلى نموذج قابل للتعميم، أو نموذج مستحسن وملهم لبقية المجالات، ذلك سيكون نجاح كاسح واثبات حقيقي على أمكانية النقد في التغيير.

لكن المشكلة كل المشكلة إذا استمر الاستشراق على ما هو عليه دون تعديل يخدم الهدف المذكور، فدون تصويب لأخطاء وإعادة توجيهه نحو مهمته الجديدة والتي هي النقد والاثراء، لن يكون هناك سبب للإبقاء عليه أصلا، لأنه سيبقى عائقا كغيره من منتجات الحداثة، إن لم يكن أخطرها (باعتباره محرضا للعنصرية والعنف ضد الآخر بسم العلم والأكاديميا)، لذلك من العاجل دوما أن تقييم حالة الاستشراق الآنية ونميز بين الاستشراق لمؤذي الذي يبقى كخلية سرطانية تتحرك في الخفاء لتدمير الآخر وتبرر العنف والهمجية تجاهه؛ وبين الاستشراق المنعش الذي يجعل الآخر فخرا للإنسانية الجديدة ومشاركا قيما وحاسما فيها، قدره قدر غيره في براح الإنسانية.

طبعا هذا لا يعني بأن مسؤولية التصحيح والتصويب تقع على عاتق المستشرقين وحدهم، لكن سيعطيهم مسؤولية أكبر من غيرهم بحكم موقعهم داخل منظمة المعرفية للحداثة وتخصصهم في الآخر، الذي يمكن أن يحمل فرصا جيدة للإصلاح، أو ربما يكون حليفا ومشاركا في إعادة تشكيل الذات، بعد أن كان منبوذا ومشوها بسببه، ويمكن أن

تتعلم الحداثة لأول مرة التزام التواضع المعرفي الذي سيكون ترياقا لمشاكلها.(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 382).

لا يتعلق النقد الخارجي للحداثة بأدوات الاستشراق فقط بالنتائج الإيجابية التي تعود على الاخر والذات، وعلى على المجتمعات والمنظومات الهامشية الموازية للحداثة كالإسلام مثلا، بل يتعلق أيضا بوشيجة متينة بالعقد الأول المنسي للإنسانية وهو العقد والالتزام الأخلاقي، ونجاح النقد هو انتصار للأخلاق قبل كل شيء، انتصار على الرأسمالية العمياء والليبرالية العمياء التي حولت الانسان إلى وسيلة انتاج واستهلاك رخيصة وجردته من هويته الأصلية وهي الأخلاق، لذى سيأتي النقد هنا ليعمل على تجاوز خطابات الظرف الحداثي الفاشلة أخلاقيا في التخلي عن فئات ومناهج الفكر الخاصة بهآ، وقبول فكر الهوامش الآتي إليها من منظومات الأطراف القادرة على إحياء الجوهر الأخلاقي المبثوث في ثنايا تراثها، فموت "الميتافيزيقا والنظرة الكونية التقليدية قد حدد الحداثة بطرق أغلقت الباب أم أي نقد غير حداثي للقضايا التي تثيرها المشكلة"(وائل، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، 2019، صفحة 370)، وتفعيل النقد بمشاركات حقيقية لكل الأطراف، سيمكن الحداثة من سد ثغراتها الأخلاقية التي كانت سبب في أزماتها العميقة بالاستعانة بالبدائل المتاحة في المنظومات الأخرى.

4. خاتمة:

يبدو أن السؤال ما الاستشراق؟ قد فقد اليوم كثيرا من أصالته، ولذلك وجب أن نتبنى سؤالا جديدا بدلا منه: لماذا الاستشراق أو ما سبب وجود مثل هذه الظاهرة؟ معنى ذلك أنه علينا أن لا نستعدي إدوارد سعيد مجددا كمعلم لفهم وتأسيس الاستشراق كمفهوم، بل كمعلم لدراسة الحداثة وإعادة النظر في أصل الاستشراق من خلال فتح دفاتر تاريخ الأنوار ودراسته والاعتراف به أصلا ومنبعا لكل المعارف والعلوم الحديثة، مع هذا السؤال لن يصبح البحث عن فهوم الاستشراق مسألة ذات معنى فارق، ولا السؤال عمن هو المستشرق وما نواياه ولا الطريقة التي يكتب بها عن الشرق أو عن مناهجه في فهم الأخر والتأريخ له، لن يكون علينا أن نرمي كل اجتهادات سعيد وأفكاره حول الاستشراق، وأو أن نبخسه حقه واسبقيته وضلوعه في هذا المجال، فسيبقى دائما ادوارد سعيد هو معلمنا الذي علمنا السحر في فهم الغرب المستشرق، لكن سيكون معلما أروع لو وضعناه على درس التاريخ الحداثي، والمناهج الفكر والمعرفة الحديثة واسترجاع علاقة المستشرق

بالحداثة والمعرفة والتاريخ وآليات القوة والسلطة، لا بعلاقته مع الكولونيالية والامبريالية والجغرافيا فحسب.

يبدو أن حلاق بمثابة ناقوس الخطر الثقافي الذي ينبه الغرب والشرق على حد سواء إلى المارد الأكبر الذي يسحر العالم، وهي الحداثة بثيولوجياتها وأيديولوجياتها وعقدها الفكرية ومفاسدها الأخلاقية، انه المنبه الذي يعلمنا أننا مخطئون ليس فقط في رؤيتنا للاستشراق، ولا حتى الاستشراق وحده هو المخطئ في طريقة تفكيره حولنا، بل الخطأ فينا أيضا، خطأ التسليم والقبول دون شك أو ارتياب في نسب الاستشراق؛ خطأ في الاستمرار في التساؤلات الفرعية غير الأساسية، كلها أدت في النهاية إلى مشاكل

ونختم هذه المقالة بفكرة أراها زبدة جيدة في طرح حلاق، أننا لسنا معنيين اليوم بالبحث عن المستشرق وادانته أو اتباعه كمصدر معرفة عن ذواتنا القديمة، كما أننا لسنا مجبرين لقبول الصورة التي رسمها لنا الاستشراق أو رفضها والتهجم عليها لأنها في النهاية مجرد أحكام أطلقها طرف ما، هذا الطرف ليس المستشرق أو المؤرخ والأنثروبولوجي أو القس، هذا الطرف هو النظام نفسه الذي خرج منه كل هؤلاء، وبما أن الحداثة هي النظام الحاكم والأخ الأكبر الذي يسير كل شيء اليوم ومنذ القرن التاسع عشر، فإنها هي الملومة الوحيدة على كل الكوارث والإساءات والفظائع التي مارسها الاستشراق أو غيره على الأخر.

الجميل في أننا لسنا بحاجة إلى رمي الاستشراق أو نبذه كتخصص أكاديمي والإبقاء عليه كعدو، بل يمكن أن نعدله ونصادقه وننتفع منه، إذ لسنا مجبرين على تغيير القارب كليا، بل يكفي أن نغير اتجاه الدفة لنبحر مجددا في الطريق الصحيح، والاتجاه الصحيح الذي على قارب الاستشراق أن يأخذ دفته تجاهه هو النقد الجدي والحاسم للحداثة وبناها المعرفية، لأنها الطريقة الوحيدة لنجاة من سموم الحداثة واسترجاع قيمة المعرفة والآخر في آن واحد.

المصادروالمراجع

- سد طلال وأخرون . (2017). هل النقد علماني: التجذيف والاساءة وحرية التعبير (الإصدار 1). (ابراهيم بن عبد الرحمن الفريح، المترجمون) بيروت، لبنان: جداول للنشر والترجمة والتوزيع.
- حلاق وائل . (2019). قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي. (عمرو عثمان، المترجمون) بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- حلاق وائل . (بلا تاريخ). وائل حلاق وقصور الاستشراق. مركز نماء للبحوث والدراسات.
- سعيد, ا. (2004). تأملات في المنفى. بيروت, لبنان: دار الآداب.
- سعيد, إ. (2006). الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق. (م. عناني (.Trad,القاهرة: دار رؤية للنشر والتوزيع.
- سعيد, إ. (2008). السلطة والسياسة والثقافة. بيروت, لبنان: دار الأدب.